فلسفة التاريخ عند الأستاذ عبد السلام ياسين

الدكتور إدريس مقبول(*)

هذه الدراسة تعترف أنها لن تكون سوى مغامرة محفوفة بالمخاطر في قراءة أحد أعمدة الفكر والتجديد الإسلامي في عصرنا الحاضر، مغامرة لأنها تسعى لتستوعب فكرا يتحرك في اتجاهات معرفية متعددة وبسرعات قياسية لا يستطيع ملاحقته ولا مجاراته فيها جهد قرائي كهذا الذي نتقفاه..

تسعى هذه الدراسة على اختصارها ووجازتها لتبرز لنا عبر قراءة متشابكة؛ تارة أفقية تقرأ التقاطعات وتارة أخرى عمودية تلاحق الامتدادات، جانبا من جوانب المدرسة الفكرية للأستاذ عبد السلام ياسين، وهو أحد رجالات الأمة العظام، ومن أبرز مفكريها وعقولها الملتزمة بقضية الإنسان وصلاح أوضاع البشرية وحاجة الإنسانية في كل زمان ومكان للعقل والإيمان.

تتشوف هذه الدراسة لتقدم لنا في هذه المسطورات الأستاذ ياسين المفكر والمجدد الذي لا يستطيع التاريخ المعاصر تجاوزه وتجاوز تأثير أفكاره رغم غيوم التعتيم وقيود الحصار(١)، فقد دخل التاريخ من باب الإبداع الروحي الحقيقي، كتابة وموقفا، ومن دخله من هذا الباب لا يخرج منه أبدا،.. كما ستكشف لنا من خلال دراسة نصوصه والوقوف عندها، أو تركها في أحيان كثيرة لتتحدث متضامة عن نفسها،.. عن مدرسة فكرية بعيدة الغور عميقة حِيكَت فِكَرُها بروح مرهفة وبصفاء عقلي وبرحمة قلبية وبدقة متناهية، تلكم هي بعض مواهب الأستاذ عبد السلام ياسين..

(*) أكاديمي مغربي Makboul_driss@yahoo.fr.

(١) يراجع: شاكر، محمود، التاريخ الإسلامي، التاريخ المعاصر، بلاد المغرب، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٦، ٤٦٧/١٤

الأستاذ عبد السلام ياسين خبرة تربوية نادرة وموهبة أدبية خلاقة، وحكمة أخلاقية عالية، ونقد سياسي ثائر، ونزعة وجودية وإنسانية مؤمنة متعلقة بالقرآن الكريم منصهرة في معانيه ومنفتحة على الآفاق البعيدة من التجارب البشرية المتنوعة.. موهبة فكرية تُنتج دُرَرها كما يقال «خارج الصندوق» من حيث خرقت المألوف وخرجت من أسر العادة، هكذا تتراءى لنا فلسفته -المتعددة الجوانب- ممثلة لفكر مركب متنور متوثب منفتح، يميزه اليقين المطلق في الله قبل فرادة الخطرات ورائدية الأفكار وبيانية الأسلوب.

في فلسفة التاريخ يشرح لنا الأستاذ ياسين كيف يكون التخلف في فهم التاريخ تخلفا في فهم جوهر الدين، كما يوضح أن الانحطاط الحقيقي في تاريخ الأمة هو انحطاط عن الأفق البرهاني النبوي العالي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤]، وأن النظر من أعالي التاريخ هو الكفيل ليمنحنا القوة والرسوخ في فهم ما جرى من علمنة ومن انفصام في القيم ومن نكوص عن الرسالية التي فتحت الباب للانتهازية والتأويل لصالح تمكين الاستبداد باسم قيم دينية زائفة.

من عبادة التاريخ إلى عبادة المطلق

يسكن الهوس بالتاريخ بعض العقول حتى تتصور أنه لا غاية تعلو فوق أن يكون لها مجد زائف تسطره في صفحاته ولو كان مجدا أو بالأحرى تمجدا لفظيا أو أيقونيا[١]، ولعل هذا الهوس الجنوني قد يرتقي ليستحيل مع حالة الفراغ المعنوي إلى عبادة للأبطال التاريخيين[٢] وللرموز التاريخية واستغراق في التعلق باللحظات الطنانة مهما تعددت أسبابها، لحظة يصبح فيها المعبود التاريخ و«المحراب التاريخ»[٣] بعبارة الأستاذ عبد السلام ياسين (رحمه الله) في كتابه «سنة الله»، وهذا النمط من السلوك والتفكير عند الأفراد والشعوب -هو في حقيقته-

(١) يميز الكواكبي بين المجد والتمجد على اعتبار أن المجد هو احراز المرء مقام حب واحترام في القلوب وهو مطلب طبيعي شريف لكل إنسان ،بينما التمجد عكس ذلك وهو خاص بالإدارات المستبدة، وبتعريف اخر التمجد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف المساواة في الإنسانية، يراجع: فصل المجد والتمجد من كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي.

(٢) عن عبادة البطولة يراجع:توماس كارليل، البطولة وعبادة البطل، ترجمة عبد الرحمن البرقوقي,د.ت.

(٣) ياسين، عبد السلام، سنة الله، ص١٥١.

تحريف للوعي المطلوب تجاه التاريخ وانحراف عن المقصود من التوجه بالعبادة للمطلق في المعرفة الدينية الحقة.

وإذا كان هذا التوجه المنحرف يتطلب نقدا في النسق المنهاجي الحق، نقدا يستهدف سؤال العلاقة بالتاريخ السالبة للوجود الإنساني بالأصالة من حيث تجعله من دون رسالة غير طلبه الحضور الذِكري الزائف والبقاء الرمزي اللحظي الخاطف، فقد وجدنا في دراستنا لفكر وفلسفة الأستاذ عبد السلام ياسين خير نموذج معرفي للتفكيك والتركيب المطلوبين لهذه العلاقة بما يوضح روح القرآن الكريم في تفسيرها لعلاقة الإنسان بالفعل والزمن والأثر والغاية والنتيجة.

لابد من التذكير أولا أن نقد عبادة التاريخ في فكر الأستاذ عبد السلام ياسين يجد تبريره في هذه الدراسة من جانب كون هذا النقد هو في أساسه الابستمولوجي نقد للتسلط وللاستبداد الذي أفسد حياة الناس وخربها.

ينطلق صاحب نظرية المنهاج النبوي من فكرة أن عبادة التاريخ هي ضرب من الهبائية التي لا تحمل غير الخواء في أحشائها، يقول في كتابه «حوار الماضي والمستقبل»: «تِبْنٌ لا وزن له، وخيالٌ ووهم لا وجود له، أن يقول التاريخ عني أو لا يقول .أعَبْدٌ للتاريخ أنا؟ أأجد التاريخ في قبري ينتظرني بأكاليل السعادة ؟»[1].

إنها أولوية واضحة لسؤال ما يأتي وما ينتظر الإنسان من معاد، وهو سؤال أولوي يتعالى على التاريخ في الفكر المنهاجي، أولوية متجاوزة هي التي تحدد فعله ومساره وحركته في اتجاهين: بحثي عن نقطة ارتكاز (يحددها الإيمان)، ورجوعي إلى الحقيقة النابضة بكل قوة ويقين ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨] (تحددها رسالة القرآن)، وقوله تعالى ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] يعني الموت، فلم يطابق اليقين شيئا أكثر من مطابقته للموت، في رحلة تكون فيها الدنيا أشبه ما تكون بالبحر، والآخرة ساحلها كما نقل عن لقمان الحكيم[2].

والموت عند الأستاذ ياسين حقيقة جوهرية ساطعة تنغرس في التاريخ كما تنغرس في الحاضر وتطل علينا من المستقبل، هي حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن العقل رغم تعاليها عليه

(١) ياسين، عبد السلام. حوار الماضي والمستقبل، ص٩٢.

(٢) ياسين، عبد السلام، الإحسان، ٢١٩/٢.

وهيمنتها عليه، لأنها فوق العقل بل وفوق التاريخ، إنها موجودة فينا وحولنا، أو بعبارة فيورباخ إنها تذكرة الموت[١] Moment Mori وهي التي توقظ الكائن الإنساني إلى حقيقته وحقيقة الزوال التي تتربص به إذا لم يبادر لحفظ وجوده في بعديه المادي والمعنوي الحفظ الباني لا الفاني، الذي يصل الدنيا بالآخرة، ويجعل من ملاحظة الموت اللحظة التأملية التي تعطيه مزيدا من الإصرار على أن يبقى حيا بالمعنيين العاليين، لأن الموت موتان عند الأستاذ ياسين: موت مادي هو انتقال من عالم الفناء إلى عالم البقاء، وهو عمق ما تبشر به رسالة القرآن من معنى العبور الذي يتطلب الاعتبار، إذ كما أن هناك حياة هنا، هناك حياة أيضا هناك، والثاني موت معنوي هو موت الكرامة الإنسانية حين يتنازل الإنسان عن حقه السامي في الوجود الكريم بأن يقبل الانسحاق الرمزي بقبول ما لا تقبله الفطرة، يقول الأستاذ ياسين: «نحرص نحن في حضيض غثائيتنا على حياة أية حياة ثم لا نقدر، ونكره الموت البدني مرحبين بموت الكرامة وسفك دماء الإنسانية فينا»[٢].

إنها أسئلة من طبيعة وجودية صرفة توجه العقل إلى سبب تعلقه الزمني بموضوع جوهرُه الفناء، إذ كما يجلب التاريخ بما هو اللحظات التي مضت وانقضت الحديث عن الموت، فإن الحقيقة التي لا تدانيها حقيقة هي التصرم والانقطاع والانتقال والحياة الآخرة، وهي مفاهيم على قدر ما تتطلب شجاعة في تأملها للإيمان بما يلزم الإيمان به والسعي لما ينبغي القيام به، فإنها تضع الإنسان أمام مسؤوليته الاعتقادية أولا وقبل كل شيء ثم الفعلية أو (التاريخية) ثانيا، فالإيمان بالله هو أولى الأولويات وأكثرها إلحاحا وأقواها أثرا وأبقاها للحياة المسأنفة هناك فيما بعد الموت، يقول الأستاذ ياسين: «إذا كان مثَلي الأعلى بطلٌ من أبطال التاريخ الثائرين، والمصلحين، ومؤسسي الدّول الفخمة، والتاركين بصماتِ أثرهم على وجه عصرهم، والمحوِّلين مَجْرى التاريخ، فإنّما أجري وراء هباءٍ منثور. كدْحٌ سعِدت به شعوب الأبطال التاريخيين أو شقِيت، وصدىً سمعته آذان البشرية ثم مضى وخفتَ ومات. إلى ماذا آل البطَل إن كان في حياته الدنيا لم يومن بالله وباليوم الآخر؟»[٣]

هكذا تتحدد القيمة الحقيقية في الوجود لا من خلال آيات البطولة والمآثر التاريخية

(١) فيرورباخ، الاعمال الكاملة،ليبزج، ١٨٦٦، ٣/٢٦-٢٨.
(٢) ياسين، عبد السلام، محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى،م، ص٨٢.
(٣) ياسين، عبد السلام. حوار الماضي والمستقبل، ص٩٢.

وسيمياء العظمة التي تحصر الوجود الإنساني في ذاته وفيما يستطيعه ويملكه (وهذا كله داخل في المتناهي)، و إنما من خلال تحقيق العبودية لله تعالى المطلق الحق وذلك حين تكسر طوق هذا الوجود المنحبس المأسور في ذاته ليعانق الوجود المطلق (اللامتناهي) الذي أوجده وأمَده (وهو معنى اجتماع العبادة بالسيادة)، والذي يكفل له انطلاقا من الإيمان الشعور بحقيقة استمرار الحياة ولو بعد الموت، يكفل له الخلود، ليس خلود التاريخ، و إنما الخلود بعد الموت، وهو أساس رسالة البشارة التي يحملها الوحي للإنسان في وجه الحتمية التطورية الداروينية التي لا ترى له أفقا بعد الموت إلا التحلل، يقول الأستاذ ياسين: «فإن لم ينحفظ لنا الربح في الأطراف فلا نبع جوهر وجودنا: ألا وهو ديننا، ومعنانا، ورسالتنا في العالم، ورسالتنا إلى الإنسان نحمل إليه بشرى أنه إنسان مبعوث بعد الموت خالد، لا ظل حيوان وسليل قرود»[1].

كما نجد الأستاذ ياسين يعلنها واضحة قوية صريحة في سياق نقده للحتمية التاريخية الماركسية التي كانت ترى أن التاريخ تيار جارف وحتمية لها اتجاه غالب، مد لا يقاوم كما يعبر تولستوي، إما أن تندمج في سياق حركته و إلا يطوح بك في مجاهل التخلف الأبدي.

يقول: «إن كان بعضهم يعبد التاريخ وتهوله أحداثه الجسام -ربما عن اقتناع مخلص للوطن والديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان- فنحن نعبد الله وحده لا شريك له، ونوقن أن ما من حركة في الكون ولا سكون إلا بإذنه وتدبيره وفعله، وأنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن ما يحدثه سبحانه في التاريخ وفق سننه في الخلق أو خرقا لها أو اختصارا لها ودمجا ما هو إلا صور من بلائه للعالمين»[2].

فكيف تتأسس العلاقة بين فقه التاريخ وفقه الدين؟

فقه التاريخ وفقه الدين:

لا ينفصل فقه التاريخ عن فقه الدين عند الأستاذ عبد السلام ياسين (رحمه الله)، ذلك أن فقه الدين بما هو فقه للحياة وتمثيل لدرجة الاستيعاب والوعي بالحياة في جميع تفاصيلها وأطوارها التي يشملها الدين و يستوعبها إذا انحرف فإن انحرافه في الشق المفهومي المتصل بالزمن مبني على انحراف فقه التاريخ الذي يفترض في منظار القرآن أن يكون مؤسسا على قواعد شرعية وسننية

(١) ياسين، عبد السلام، في الاقتصاد، ص٢٢٤.

(٢) ياسين، عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، ص١٦.

في فهم أحوال الناس وما يجري بينهم حال اجتماعهم منشطا ومكرها، كما أن فقه الدين بما هو معارف متناهية عن اللامتناهي والمطلق لا ينفصل عن تاريخه حين نرغب في فهمه كما يقرر بيكون إذ المعارف كالأهرامات وقاعدتها التاريخ، والتاريخ والدين لشدة الاتصال والتلازم بينهما، فكلاهما يتكلم أو يجيب حين يسكت كل ما عداهما كما يعبر أندري مالرو[١].

وتَرَتُّب الفساد في فقه الدين من جانب فساد فقه التاريخ يعبر عنه الأستاذ عبد السلام ياسين في مواضع متعددة لعل أبرزها الموقف الصارم مما يسميه بالانكسار التاريخي (أكبر تحول في تاريخ الأمة بالخروج من الخلافة إلى الملك وضياع الشورى). والأستاذ ياسين في تفكيكه لهذه المحطة الفاصلة وما انبنى عليها من مواقف متضاربة لا يتوانى في نقد الموقف الفكري والسياسي لعدد من علماء السنة الذين سكتوا وآثروا السلامة[٢]، ويعتبر أنه لا يمكن بناء تصور فقهي سليم إذا كان التصور لفقه التاريخ مرتبكا غير واضح في إيثار السكوت عن الكلام في هذه المحطة الحرجة من تاريخ الأمة. لأنه بسبب هذا السكوت «انحبس فقه التاريخ الإسلامي، ومن ثَمَّ فقه الدين، في هذا الوقوف الورِع المُسالِم الفارِّ بدينه»[٣].

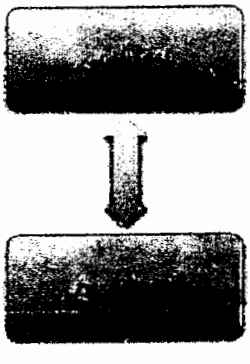

موقف الصامت سيكون له تداعيات وترددات وأصداء مدوية يجدها من يطالع التراث الضخم فيقرأ في تفاصيله الغائرة النفس الابداعي المنحبس وظلال الحسرة التي تخنق القدرة وتشدها لسلاسل التقليد والاتباعية.

(١) أندري مالرو، الحبل والفئران، ترجمة هنري زغيب، بيروت: منشورات عويدات، ط١، ١٩٨٢،ص٢٢.

(٢) التفكيك هنا موقف معرفي منهاجي لا يرى فائدة في عرض أفكار السابقين عرضا مخلصا والوقوف عند هذا الحد الصامت المجامل، وإنما يرى أن المساءلة النقدية هي التي من شأنها أن تكون سببا في التجاوز والتصحيح والتطوير، وهي عنوان المسؤولية فيما ينتظرنا من تحديات المستقبل.

(٣) ياسين، عبد السلام. تنوير المومنات،م.س، ج٢ ص٢٨٨.

تصدعات الصمت التي تسكننا وتسكن تاريخنا تدعونا اليوم كما يقول الأستاذ ياسين أن لا نخاصم شيئا من تاريخ المسلمين الماضي والحاضر، وأن نفهمه في حركته وعِلاَّتِه، في صعوده وهبوطه، في انتقاض عروة الحكم منه وفي تشبث الناس «بالتي تليها»، ليكون لنا اليوم الموقف الثابت الواعي والمطمح المنهاجي الخلافي، مع الاحتفاظ بالمرونة المرحلية.

وفي الوقت ذاته ينبغي لنا أن لا يدفعنا التقليد للعلماء السابقين الذي خلَّفوا فتْوَى وفقها في مجال الحكم اجتهدوا فيه لزمانهم فنقبل من الفتنة ما هو جدير بالإنكار الثابت الدائم. ذلك أن فقه السابقين رحمهم الله كان «يدور حول فكرة دَرْءِ الفتنة الكبرى بفتنة أصغر»[1]، وهذا النمط من التفكير الذي تنتقده نظرية المنهاج النبوي في بعده النظري والتنزيلي هو الذي كان وراء تزمين الفتنة، فتنة الاستبداد بدعوى الحفاظ على البيضة، فذهبت البيضة وبقيت فتنة الاستبداد والحكم الفردي إلى يوم الناس هذا.

في المنهاج نجد هذا الفقه التاريخي نموذجا حيا للسلبية، وهو يأتي مرادفا لمفهوم جديد يسميه الأستاذ ياسين «بفقه القطيعة»، ولعله واحد من نواتجه وثماره، ذلك الفقه الذي «يقسم العالم إلى دار إسلام ودار حرب»[2] فقه نكوصي اختزالي للتاريخ وللدين نشأ تحت ظل حكم السيف والتطاحن بين إمارات مستولية بعضها في صراع مع بعض، وبينها وبين عدو محيط صراعات: تارة هو مع «أحكام المسلمين وأمانهم»، وتارة هو مع الأمان دون الأحكام، وقد تطور هذا الفقه إلى يوم الناس هذا فأنتج -بدعم باذخ- البرامج المؤسسية للتكفير وعقلية التفجير التي لا تؤمن بتعدد الدوائر الوجودية ولا بالمشترك الإنساني ولا بالاختلاف ولا بالأساس المتجذر لمفهوم الرحمة في الدين.

وإزاء هذا التخبط المعرفي الذي أفضى إليه فقه القطيعة الذي استولى وخيم على العقل الإسلاميّ لقرون، يحدثنا الأستاذ ياسين (رحمه الله) أنه «ينبغي أن نَتَحرّر من هذا الفقه التاريخي لنؤَسس على قواعد التبليغ النبوي ونحمل للناس الدعوة في أسواقهم ومنتدياتهم وقبائلهم وبواديهم وحواضرهم كما كان يفعل محمد ﷺ.

فقهنا عندئذ يقسم العالم إلى أمة استجابة هم المسلمون اليوم، وإلى أمة دعوة هم سائر

(١) ياسين، عبد السلام، العدل، ص٥٩١.

(٢) ياسين، عبد السلام. العدل، ص٦٢٣.

الناس والأجناس»[١]، هكذا لا يكون المخرج إلا بتخليص التصور مما ران عليه للعودة مباشرة للدين الفطري في صفائه وسماحته وبساطته أو لنقل للبعد الحضاري التعاوني للدين، عودة من شأنها أن تضعنا على سكة الفهم السليم لرهانات الفكرة في التاريخ.

وإذن يكون فقه التاريخ المطلوب في نظرية المنهاج النبوي أو ما سميناه برهان الفكرة في التاريخ هو الفقه الذي يصنع المشترك ويبحث عنه ويوسعه ويفتش عن الفرصة والمناسبة التي جعلت الأنبياء لا يتوانون عن التواصل مع «الكل الإنساني»، ويصنعون مجتمعا للتواصل و«العيش المشترك»[٢]، فتاريخهم الذي غير خارطة العالم هو تاريخ تواصل بامتياز، تواصل وتدافع ومقاومة لثقافة الاستبداد والتسلط بثقافة التوحيد والمساواة والعدل بـ «التي هي أحسن»، فـ «من واجبنا الآكَدِ أن نتقدم برسالة الله للعالمين في عزة وشموخ وثقة. فالإنسانية جمعاء أمة الاستجابة، وفي سمعها يجب أن نبُثَّ كلمة الله الخالدة»[٣]، الصورة كما يقدمها المنهاج صورة بث ورسالة ويقين وثقة وليست صورة حرب ومطاردة ودماء وأشلاء، وشتان بين المنظورين، لأن حقيقة الدين كما يقول أبو يعرب هي نقل البشرية من عصر الحيوانية الخاضع لمنطق الصراع من أجل فناء البقاء الزائف إلى عصر الإنسانية الخاضع لمنطق التآخي من أجل البقاء الحقيقي»[٤].

أعالي التاريخ

إن تاريخ الإسلام عند الأستاذ ياسين كما هو تاريخ للعبقرية والتفوق في بعض قطعه ومساحاته هو أيضا، «إذا نظرنا إليه من أعالي التاريخ، مرآة لتذبذب الإنسان وضعفه، رغم قوة العقيدة المؤسسة، أمام الفتنة، فتنة المال والجاه والقوة المركبات للحضارة التي أهلكت وتهلك الإنسان، لأنه لا يفهم الحضارةَ ولا يبغيها إلا رقةً في العيش ورفاها»[٥].

---

(١) ياسين، عبد السلام. العدل، ص٦٢٣. والتقسيم إلى أمة دعوة وأمة إجابة أو متابعة قديم لا نعرف أول من قال به، لكنه مذكور عند فخر الدين الرازي وابن تيمية وشراح البخاري وعند المناوي والبزدوي وغيرهم كثير.

(2) Denis Desrochers, La Convivialite, Une Interpretation De La Spiritualite De La Liberation Chez Gustavos Gutierrez, Midiaspol, coll Breches Theologiques,1999, p31.

(٣) ياسين، عبد السلام. العدل، ص٣٦١.

(٤) المرزوقي، أبو يعرب، فلسفة الدين من منظور الفكر الإسلامي، بيروت: دار الهادي، ط١، ٢٠٠٦، ص٨

(٥) ياسين، عبد السلام. الإسلام غدا، ١٤٥-١٤٦.

وإذا كان هناك من يرى في التاريخ القومي أو الإنساني سجلا للعظمة والتألق الذي يدعو إلى نوع من الكبرياء الموهومة أو الانتشاء المخدر إزاء أعمال البشر كائنا ما كانوا وكائنا ما كانت أعمالهم، فإننا نرى أن الأستاذ عبد السلام ياسين يرفض هذا المنحى ويرفض هذا التسحير، ويهاجم هذه المدرسة التي تصنع الخواء والامتلاء الفارغ الذي لا يسعف في التقدم أو التطور المطلوب، ويعكس ضحالة في شرط الوعي باللحظة التاريخية ومتطلباتها من النقد والاعتبار والجاهزية للعمل.

إننا إذا كنا نكتفي في حالتنا الراهنة «بقراءة آيات البطولة والشجاعة والخلق العظيم عند الصحابة والصحابيات دون أن نُلِمَّ بمواطِن انهزموا فيها، وأخرى زلزلوا فيها، وأخرى أخطأ فيها بعض، وأخرى زل فيها بعض، وأخرى تصرف فيها بعض تصرفا هو إلى فعل الجاهلية أقرب، فإنما نُبعد عنا المثل ونرفع البشر إلى مقام الملائكة، وبذلك يفوتنا الاعتبار، وتفوتنا العِبرة»[١].

على هذا يكون معنى البصر بالتاريخ «اعتباريا» ويحقق الاعتبار أي المرور أو العبور من الظاهر إلى المبدأ والمستفاد (من أعلى) ويكون نقده شرطا ضروريا للبصر بالحاضر والمستقبل، وحتى يكون البصر سليما غير ذي عوج لابد من المنهاج النبوي الذي من خلاله ننظر عند الأستاذ ياسين (رحمه الله) إلى لحظة الانكسار التاريخي؛ هذه اللحظة وهذا التحول الذي يشكل في تاريخنا حدثا محوريا ومفصليا باعتباره مركبا ومتعدد الأبعاد، وإلا «سيبقى فهمنا لحاضر الأمة ومستقبلها مضببا بل مشوشا غاية التشويش إن لم ندرك أبعاد تلك الأحداث وآثارها على مسار تاريخنا وتجلجلها في الضمائر عن وعي في تلك العهود وبحكم تكوين المخزون الجماعي الذي توارثته الأجيال»[٢].

كان شيخ المؤرخين العرب قسطنطين زريق المؤرخ القومي يتحدث عن شيء يسميه «فوق التاريخ» يقول: «إن الإبداع التاريخي لا يأتي عن الخضوع المطلق للتاريخ، بل يتطلب نوعا من التحرر يتيح للمرء أن يرتفع فوق التاريخ وأن يحكم فيه فيميز بين الأصيل الباقي من تراثه والطارئ المتغير من أحواله وصوره وأشكاله»[٣]، والظاهر أن مفهوم «فوق التاريخ» و«من

(١) ياسين، عبد السلام. تنوير المومنات،م.س، ج٢ ص٢٩٣.
(٢) ياسين، عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ، ص ٢٧.
(٣) زريق، قسطنطين. نحن والتاريخ، بيروت: دار العلم للملايين،ط٣، ١٩٧٤، ص ١٨٣.

أعالي التاريخ» كلاهما مطلب معرفي في أفق التحرر الواعي من التاريخ وحتميته بالتأسيس لقوة الإرادة والفعل والمبادرة.

إن «من أعالي التاريخ» تعني فيما تعنيه أمرين:

الأول: «الواجب» في حركة التسامي العقلي والعاطفي الذي ينبغي أن يسلكه النظر في معالجته للفعل الإنساني في «الزمن» لطلب الاعتبار لا لمجرد تحصيل وحفظ الأخبار.

والثاني: «العدل» ولا نقول الموضوعية في الخلاصات والنتائج التي يؤدي إليها النظر من غير أن يكون للولاء المذهبي أو الطائفي أو الديني مدخل في الحكم على الفعل أو الفاعلين انسجاما مع روح القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

هكذا يكون مفهوم «أعالي التاريخ» في عمقه مرادفا لمفهوم «التعالي على النفس» و«التعالي على المذهب» و«التعالي على القطرية» و«التعالي على كل قيد من شأنه أن يأسر العقل في قفص «الذاتية المريضة»، أو «الطائفية المقيتة»التي صنعت تواريخ يصدم بعضها بعضا وينكر بعضها بعضا، فمفهوم «من أعالي التاريخ» يعيدنا من جديد لنتأمل دوافعنا للعودة للتاريخ، حتى لا تكون فرجة أو استراحة أو ترفا أو فرصة للانتقام، كما يدفعنا في الآن ذاته لنرفض وبشدة التفسيرات البسيطة الأحادية التي تفرضها الملاصقة الشعورية وغياب المسافة المعرفية اللازمة، لأنها تفسد تصوراتنا عن الأشياء كما يقرر ماكس فيبر[1].

الانكسار التاريخي

إن فهم ما يسميه الأستاذ ياسين بالانكسار التاريخي الذي حدث بعد الفتنة الكبرى ومقتل عثمان رضي الله عنه ضروري «لمن يحمل مشروع العمل لإعادة البناء على الأساس الأول، فهم طبيعة هذا الانكسار، ومغزاه بالنسبة لتسلسل الأحداث وتدهورها بنا إلى الدرك الذي نجد الآن فيه أنفسنا، فهم الذهنية التقليدية التي تدين بالولاء غير المشروط للسلطان، كيف نشأت، وكيف توارثها الخلف عن السلف، وكيف صنعت أجيالا يسوقها الحاكم المستبد سوق

(١) نقلا عن:دانيال هيرفيه ليجيه وجون بول ويلام، سوسيولوجيا الدين، ترجمة درويش الحلوجي، المجلس الأعلى للثقافة، ع٨٠٤، س٢٠٠٥، ص٨٩.

الأغنام، فهم الذهنية الأخرى التي رفضت الاستسلام وتشيعت لآل البيت، فهم كيف تغلغلت الثورة الشيعية على الحكم حتى انفجرت في عصرنا..، فهم كيف نشأت الصراعات المذهبية بين طوائف الشيعة والرافضين للحكم القائم وبين أهل السنة والجماعة الملتفين حوله، لماذا التف هؤلاء ولماذا رفض أولئك، فهم كيف شجرت الخلافات واشتجرت بين فرق النظار والفقهاء، وكيف برزت العقائد المتطرفة من قدرية وجبرية وخوارج ومرجئة»[١].

أمام هذا التاريخ المائج الهائج بالخلافات تتوقف وحدة الأمة في المستقبل كما يقررها الأستاذ ياسين في المنهاج النبوي على فقه «الانكسار التاريخي»، ذلك أن هذا التأسيس الجديد «لا يمكن أن يعتمد خلافا مذهبيا يُتخذ بمثابة الأصل. وإلا حكمنا على أنفسنا بسرمدية الخلاف والانشقاق، إن لم نزد الانكسار التاريخي تفتتا بما يستجد من مواقف متناقضة بين أعضاء أمة»[٢].

من خلال المنهاج النبوي يميز الأستاذ ياسين -ولعله كان في ذلك متأثرا بولي الله الدهلوي-[٣] بين تاريخين:

الأول: تاريخ الفتن (وهو تاريخ المسلمين)، الذي ينبغي فيه اعتبار أن «ما طرأ من تظالم إنما هو ترد تاريخي مرده إلى ابتعاد المسلمين عن النموذج، وتحريفهم للنص الشرعي، من جراء فساد نيات الحكام، ومن جراء المرونة المرضية لبعض أعوانهم من المترجمين عن الشريعة»[٤].

---

(١) ياسين، عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ، ص ٢٧.

(٢) ياسين، عبد السلام. الخلافة والملك، دار الآفاق، ٢٠٠٠، ص ٥٢.

(٣) يعتبر الإمام الدهلوي واحدا من المجددين في تاريخ الأمة الهندية خلال القرن الثامن عشر، وقد كان من جملة ما قام به هو أن ميز بصورة دقيقة بين ما يمكن أن يسمى بتاريخ الإسلام وما يمكن تسميته بتاريخ المسلمين، ثم ألقى نظرة دقيقة على التاريخ وذكر خصائص كل فترة زمنية، ومن خلال ذلك توصل إلى المشاكل والمفاسد الموجودة في مختلف الفترات التاريخية، وتوصل إلى أن السبب الحقيقي وراء كل تلك المفاسد والمشاكل أمران:

الأول: انتقال السلطة السياسية من الخلافة الراشدة إلى الملكية، وقد تحدث عن الفروق الأساسية بين النظامين بالتفصيل في كتابه «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء»، وتحدث عن الآثار المترتبة على هذا التغير والانتقال من الخلافة إلى النظام الملكي.

والثاني: استيلاء الجمود على العقول وموت روح الاجتهاد، وقد تحدث عن هذه الآفة في جميع كتبه، مثل «إزالة الخفاء»، و«حجة الله البالغة»، و«البدور البازغة»، و«التفهيمات» وغيرها.

(٤) ياسين، عبد السلام، المنهاج النبوي، ص٣٤٩-٣٥٠.

الثاني: تاريخ الإسلام في نصاعته وإشراقته. ذلكم التاريخ الذي كان «نموذجا رائعا في اتجاهاته وإنجازاته على عهد النبوة والخلافة الراشدة»[1].

هذا التمييز نابع في الأصل من وعي بفلسفة التاريخ التي تدعونا اليوم لنعيد قراءة تاريخنا الذي لم يكتب في الحقيقة بعد، إذا كانت الكتابة تشترط في أصلها وعيا سابقا بما يحرك هذا التاريخ وبالفرق بين تاريخ الفكرة وتاريخ تطبيقها وممارستها، وتمييزا بين اللحظات التاريخية التي تحصل فيها المطابقة بين الفكرة والفعل واللحظات التي تتباعد فيها المسافة ويكثر التدجيل وتشتغل أدوات التضليل، بل ويصبح التاريخ نفسه وسيلة من وسائله.

مبحث الانكسار التاريخي في نظرية المنهاج النبوي أساس ضروري من أساسات تطوير رؤيتنا للتاريخ، ومعيار حيوي لقياس درجة وعينا بخطورة تسلل الانتهازية وهيمنتها على المبادئ والقيم في الفعل الإنساني.

مع الانكسار التاريخي تراجعت قيم وزحفت قيم أخرى، تراجعت قيم الإسلام الحقيقية القرآنية لصالح القيم الجاهلية والكسروية، وتراجعت قيمة الأمة والجمهور المتجسدة في الشورى لصالح قيمة الاستبداد والفرد، وتم التطبيع معه ليتحول إلى واقع لا يرتفع بل وإلى ضرورة لا تكون الأمة إلا بها، وتراجعت قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكادت لا تطال إلا قضايا الأفراد بعيدا عن قضايا الحكم الوراثي المتغلب، وكانت كل هذه راجعة في الأصل إلى عطب أصاب العقل المسلم الذي أضعفته التجزيئية والذرية، إنها البداية الأولى للعلمنة في تاريخنا، بداية مبكرة تنذر بكل شؤم سيأتي فيما بعد، ولهذا كان من مفردات هذا الوعي المطلوب اليوم الوعي بأن التجزيئية بدأت في العقول والعلوم وفعلت فعلها إلى أن بلغت جغرافيا الأقطار والشعوب، فتضعضع مع كيان الأمة المعنوي كيانها المادي أيضا.

تكمن مشكلة الانكسار التاريخي المبكر الذي ابتليت به الأمة الإسلامية، في أن هذا الانكسار أثر سلبا على التلازم بين الأصلين، «بما أحدثه من انفصام نكد بين القرآن الكريم، باعتباره وحيا من الله تعالى وذكرا وشرعا وأحكاما، وبين الإرث النبوي الشريف باعتباره تجسيدا عمليا لذلك الوحي. وفي ظل ذلك الانكسار وما صاحبه من انحرافات خاصة على مستوى الحكم وتوزيع الثروة، أُفقد القرآن الكريم مكانته في التشريع والتوجيه، بعد أن

(١) ياسين، عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ، ص٤٥.

كان عند جيل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم فرقانا فاصلا في جميع مناحي الحياة، وبرهانا ساطعا»[١].من هنا يكون ضروريا وعي هذه اللحظة الفارقة في قراءتنا للتاريخ.

قراءة ثنائية

ينتقد الأستاذ ياسين نمطين من التفكير التاريخي هما في الحقيقة موقفان إزاء تاريخنا الخاص، موقفان اختزاليان متحيزان للأفكار الجاهزة يقول: «إن الإعراض عن تاريخنا بدعوى التشبث بالنموذج النبوي قرين في البلادة لاحتضان هذا التاريخ احتضانا صبيانيا يدافع عن الأخطاء الفادحة ويعلّم للأجيال ترسيخ الواقع الموروث. نقد تاريخنا بالعقلانية الوضعية من زاوية الإلحاد والعلمانية أو المادية الجدلية أو القومية الاشتراكية نقد موجه لتفسير تاريخ المسلمين تفسيرا يجرد الإسلام من الوحي والنبوة والإيمان بالله وباليوم الآخر ليبقى فقط للاشتراكي «ثورة» أبي ذر وعدل عمر، وللعلماني حضارة بغداد والأندلس المتسامحتان، وللقومي عزة العرب ونخوتها، وللجميع حين ينافقون عبقرية محمد القائد العربي الرائد في إدخال السياسة إلى الميدان العسكري بحيث عبأ العرب تعبئة لا مثيل لها في التاريخ»[٢].

بين من يغضي حياء من المسلمين وتقديسا للتاريخ فينثني لا يفتش في صفحاته خوفا على إيمانه من أن يناله شيء حين يقرأ عن سقطات الرجال، فهو يتأول كل ما حصل ويحمله على أحسن المحامل، وبين من يخوض في كل شيء بأدوات عصره ويخلط عامدا بين تاريخين: تاريخ الإسلام وتاريخ المسلمين الذي ألمحنا إليه، ينهض المنهاج النبوي ليعلن عن الوعي التاريخي المطلوب، يقول الأستاذ ياسين: «نحن نقصد كشف جانب من ذلك الستر بمقدار ما نتبين كيف تجري قوانين الله ونواميسه في الكون على البر والفاجر، على المسلمين وغير المسلمين، آخذين في اعتبارنا ما جاء به الوحي وما أخبرنا به المصطفى ﷺ من أخبار الغيب، وما أوصى وما علم، لتستقيم لنا الرؤية من زاوية نظر يوجهها القرآن ويحدوها الإخبار المعصوم. لا تزيغ العين التي تقرأ ناموس الله في التاريخ بالعين التي تقرأ مواقع القدر الإلهي، ولا تكون النظرة إلا عوراء إن انغلقت العين المراقبة للكون وأسبابه وانتصبت العين الإيمانية الغيبية

(١) ياسين، عبد السلام. القرآن والنبوة، ص ٥.
(٢) ياسين، عبد السلام، سنة الله، ص١٨.

تترجم وتفسر، لا خَبَرَ عندها بالعلة والمعلول كما شاء الله تعالى أن تكون علاقتهما مفهومة عقلا مترابطة متساوقة»[١].

كيف إذن نقرأ في الآيات الكونية التاريخية والآيات الحِكمية من سنة الله بعينين لا بالعين العوراء؟ كما يقول المنهاج، هذا السؤال ذو الطبيعة الاستشكالية في الفكر المنهاجي هو الذي فتح للأستاذ ياسين الباب في اتجاه معنى القراءة بعينين مفتوحتين أو القراءة البصائرية، يقول: «القراءة المفتوحةُ البصيرة لمخاض العالم، وتحولاته العجيبة وتقدمه العلمي الصناعي المذهل، وإغداق القدرة الإلهية على أبناء الدنيا من كل شيء نجدها في قوله عز وجل لنبيه وحبيبه محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥]. لا يفُتُّ في عضد المجاهد الماضي لموعود الله ورسوله هذا الفرْقُ الهائل بيننا وبين الناس. إنها سنته سبحانه في الأمم. نَسُوا ما ذُكِّروا به ففتح الله عليهم أبواب كل شيء ابتلاءً»[٢]

حين يعالج الأستاذ ياسين قضايا التاريخ البشري يرى أنه من الضروري أن نقرأ في كل الظواهر جانبين بينهما من التداخل ما يحتاج معهما المؤرخ المؤمن إلى جهد معرفي لتمييزهما لتظهر المسؤولية وحجم الإخلال بها: الجانب القدَري والجانب الشرعي، فمظاهر الفُرقة على سبيل المثال «بين بني آدم ترجع إلى سبب عميق كامن تحت تصادم المصالح الاقتصادية والنزاعات السياسية والتنافسات القومية: هذا السبب هو جفاف القلوب من الرحمَةِ، وهي الرحِمُ الجامعة. نجد هذا السبب مطروحا واضحا إن قرأنا آيات الله عز وجل في القرآن وآياته في الكون وسنته في التاريخ قراءة ثُنائية قدَرية شرعيَّةً. القراءة التاريخية تشتغل بالنزاعات في عالم الأسباب لا تتفتح عين قلبها لتُميّزَ مراتِب المُدْرَكات من آيات الله في الكون يقابِلُها ويكشف أسرارها آياتُه سبحانه الشرعية الأمرية المنزّلة على رسله عليهم السلام. وإذاً فلا يكون القرآن دليلَ عمل لمن يقرأ هكذا»[٣].

---

(١) ياسين، عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ، ص ٢٩.

(٢) ياسين، عبد السلام، العدل، ٣٣٥.

(٣) ياسين، عبد السلام، العدل، ٢١٧.

بالمنهاج النبوي البصائري تمكن الأستاذ ياسين في خضم مناقشاته وهو يقرأ أحداث العالم وأفكاره وذهنياته وأنانياته أن يجمع إليها قراءته العميقة المستبصرة للوحي فلا يرى على سبيل المثال أن الإسلام بديل عن شيء من هذه المذاهب والتيارات والأفكار، على الرغم من الحاجة لقراءتها وتمحيصها والإفادة منها باعتبارها رصيدا تاريخيا إنسانيا لابد من الاتصال به والتواصل معه، يقول: «ليس الإسلام بديلا عن شيء، الإسلام كلمة إيجابية من عند الله بلغها للإنسان رسول الله. بيد أن قراءتنا لكلمة الله في كتابه المنَزّلِ دون قراءة كلماته في العالم وتاريخ الإنسان، وفلسفات المستكبرين في الأرض من بني الإنسان، تكون قراءة منطوية مبتورة. تعجِزُ عن الفهم فتعنُف، أو تعجز عن العمل فتتهم العالم وكلام سُكان العالم بأنه عين الباطل، وتاريخ الإنسان بأنه جِيدُ الزمان العاطل»[1].

ونظرية المنهاج النبوي في قراءة سجل التاريخ الإنساني تتحول عند الأستاذ ياسين إلى منظار بعيني القرآن والسنة الصحيحة ينظر بهما إلى معنى تعاقب الأحداث وفعل الله في خلقه الذي لا ينفي مسؤولية الخلق عن أفعالهم وما كسبت أيديهم ابتلاء واختبارا كما لا يتجاهل منطق السببية الذي قامت به العلاقات والأشياء.

سببية تجعل العقل في منزلة التكليف متوازنا مستبصرا على ما يتطلبه الابتلاء من توقع ودفع وتدافع وسبق وتسابق، وإلا فإن حركة التاريخ عند الأستاذ ياسين مسار تحكمه قواعد وسنن ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٧]، ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٥]، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، قواعد وسنن في التعاون والتهارج في الخراب والعمران، «تحكمه سنة الله التي لا تتخلف. قُرىً ظالمٌ أهلها، تستعصي على الاستقامة، وتتكبر على التوبة، وتظلم الناس، وتستكبر في الأرض بغير الحق، وتعتدي على حقوق الإنسان، على حقه الأسمى وهو أن يعرف الله، ويطيع الله، ويستعد للقاء الله في دار البقاء.التاريخ عندنا مستمر من بعثة نوح عليه السلام إلى آخر ما نشاهد من تقلبات بني آدم في الأرض. قانون إلهي واحد لا يتخلف. تطغى القرى الظالم أهلها، ويُعجب الناسَ تقلبُهم في البلاد،

(١) ياسين، عبد السلام، الشورى والديمقراطية، ص١٦٨.

ويبتلَوْنَ بزينة عابرة ونجاح مؤقت. ثم يأتي أمر الله صيحة أو خسفة أو حاصبا أو طوفانا»[١].

هذه الآلة المنهاجية في قراءة التاريخ سمحت أيضا للأستاذ ياسين بأن يأخذ مواقف متقدمة يميز من خلالها أيضا بين معنيين: ما هو من صميم التاريخ أي ما هو زمني وما من صميم الشرع الحنيف من خلال قراءة تنزع السلطة من يد المتغلبين الذين يكتبون التاريخ بمزاجهم كما يقول روبرت براسيلاش[٢]، خصوصا تلك المفاهيم التي صنعها البعض في التاريخ نحو مزيد من التحكم في الرقاب وأضفى عليها قداسة مطلقة، يقول على سبيل المثال عن مصطلح «أهل الحل والعقد»: «نَجد في تراثنا الفقهي مفهوما اجتهد في التمكين له الفقهاء في فترة ما بعد الانقضاض الأموي. هذا المفهوم هو «أهل الحل والعقد». وتُشَكِّلُ هذه العبارة التي لا سند لها من كتاب ولا سنة تسلُّطا مغناطيسيا على عقول المقلدين. تشكل استبدادا بخيال بعض الإسلاميين حتى يظنون أنَّ «أهل الحل والعقد» بَندٌ من بنود العقيدة وركيزة ثابتة من ركائز الإسلام. ولا بد لنا من الخروج من طائلة هذا المفهوم الغامض لكيلا نُحيلَ الشورى على مجهول له من جهالته وغموضه سلطة الأغوال الفاتكة»[٣].

إن الوعي التاريخي في المنظور المنهاجي وعي شديد الحساسية للغة والألفاظ ولتاريخها، وهو يعمل على كشفها على النحو الذي قام به فرنسيس بيكون فيما سماه أصنام السوق أي الالتباسات التي تخلقها الكلمات حين نتداولها ونصر عليها من غير تمحيص، والوعي التاريخي في نظر المنهاج هو وحده الكفيل بطرح كل المفاهيم والخرافات والأساطير التي أسسها الحكم المستبد لإحكام قبضته على الرقاب والعقول، ومن غير هذا الوعي تشدنا الأمية التاريخية لنكرر مع ببغاوات العصر ما سطرته أقلام المؤرخين من أباطيل «الخلافة الأموية والعباسية وغيرها» وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، هي التي أصبحت تصنع التاريخ «الأسطوري» بأيدي وسواعد أمة استحالت إلى طابور من العبيد والخدم.

---

(١) ياسين، عبد السلام، الشورى والديمقراطية، ص١٢٠.

(٢) نقلا عن:

Bosko dukanac, Comme des marionnettes au bout d'un fil, L'Age d'Homme, p7.

(٣) ياسين، عبد السلام. العدل، ص٦١١.

صناعة التاريخ

تحدث الأستاذ ياسين عما كان يسميه الإمام البنا رحمه الله «صناعة الموت» باعتبارها من واجبات ومتطلبات التغيير، وهو ما يعني أن يكون هم الإنسان المؤمن الاستشهاد جهاداً في سبيل الله، حيث تتجسد التضحية بالنفس من أجل الفكرة والمبدأ. ويجتهد الأستاذ ياسين ليشتق قياسا على مفهوم البنا مفهوما يرى أنه صناعة أيضا، وهو في نفس المستوى من الضرورات ألا وهو «صناعة التاريخ»، وهو مفهوم نجده عند فلاسفة كبار أمثال آرون وريكور ومؤرخي العصور الوسطى أمثال مارو وبول فاين، مفهوم كان يدخل ضمن «التصدي للمحظور» لبعده الفلسفي[١]، من منطلق المنهاج النبوي تبدأ عملية صناعة التاريخ؛ من مبادرة الفعل لا من مجرد المشاهدة، تبدأ من وعي بالمصير الذي يتقدم بمسافة حركة الإنسان وتوجهه، التفكير في المصير هو تفكير في المستقبل كما يخبرنا رامون مارتينيز[٢]، وكأن المستقبل هو الذي يشعل حركة الحاضر لتصبح حركة منظمة ومنسقة في مشروع فردي وجماعي لصناعة التاريخ، ويرى الأستاذ ياسين أن اهتمام الإنسان يجب أن ينصب حول مصيره هناك في العالم الآخر، «فيعمق إيمانه وشوقه، ويعد حياته ليبذلها عند الحاجة في سبيل الله. كما يجب أن يحمله ذلك الإيمان نفسه وذلك الشوق وذلك الاستعداد للموت على تهييء طاقاته الفكرية والمالية والعملية وطاقات من حوله لخدمة بناء الدولة الإسلامية. مصير المؤمن المقبل على الله حقا لا ينفك عن مصير أمته. همّ ما بعد موته لا ينفك عن همّ انتصار دين الله واستمراره»[٣].

صناعة التاريخ في نظرية المنهاج النبوي تطرح على الإنسان كيف يكون فاعلا وصانعا لحاضره ولمستقبله ومسئولا عنهما، أو بعبارة أخرى كيف لا نظل منقادين منفعلين، يفعل فينا الغير ويحكم علينا التاريخ، كيف لا نكون وجودا خاملا يطفو على مجرى التاريخ؟ يجره معه إلى هنا وهناك دون أن يكون لهذا الوجود أي أثر في توجيه التاريخ أو تعديل سيره، كيف نمارس حريتنا في الاختيار المسئول، ذلك أن الإنسان الحي كما يقول قسطنطين زريق: «هو الإنسان الذي يحس بضرورة اتخاذ قرارات إزاء ما يعترضه من مسائل، هو الذي يشعر بالتحدي

---

(١) يراجع: غي تويليه وجون تولار، صناعة المؤرخ، ترجمة عادل العوا، دمشق: دار الكلمة، ط١، ص٢١.

(2) Ramon Martinez, Du Regard A la Contemplation, Itinéraire de la vie dans l'esprit,Brech Theologique, 1953, p60.

(٣) ياسين، عبد السلام. المنهاج النبوي، ص٤٧.

- تحدي الطبيعة والتحدي البشري - وبالحاجة إلى الرد عليه، هو الذي يدرك إمكانات الاختيار ومواضع القرارات ويحسن الإقدام عليها»[١].

لاشك أن صناعة التاريخ تحتاج إلى فهم ورؤية واضحة تتجاوز فيه الأسباب الثانوية بعد أن تحددها وتحدد تأثيرها القصير المدى إلى البحث عن السبب الرئيس وراء أزماتنا ومحننا الحقيقية، إنه الاستبداد، الاستبداد الذي لا نصنع شيئا إن لم نرصده عدوا أول في طريق عودتنا لمسرح الحياة، إنه الاستبداد الذي فرق هذه الأمة وفتتها، وأفقدها فاعليتها وأفرغها من محتواها الرسالي والشهودي، إن الاستبداد سبب كل بلاء، «الاستبداد الفردي هو داء الأمة»[٢]، و«ما من مذهب ظهر، ولا حرب سياسة، ولا ثورة، ولا قتال بين المسلمين إلا وزاد التمزق فداحة. وكان الاستبداد أهم عوامل التفتيت مهما اختلفت الراية التي رفعها»[٣].

صناعة التاريخ لا تكون إلا بالاقتحام والإقدام لأن الإبداع والتقدم لا يحصلان بالاستكانة إلى الواقع والضرورة،والاستسلام لثقلهما.

وبالقدر الذي لم نبادر إلى هذه المأمورية الجسيمة، فقد جنت علينا تصوراتنا لأنفسنا المليئة بالغرور فأخرجتنا من حلبة التاريخ، تلكم الحلبة التي كنا فيها فاعلين فأصبحنا بضاعة. كما كان لتصورنا للعالم والناس وكأن العالم وساكنيه كومة من الفحم الغث وهو تصور لا يطابق الحقيقة، فزاغ تقديرنا للأمور وحكمنا عليها، وعرض أعمالنا للفشل[٤].

كما لا يصنع التاريخ من لا يستطيع أن يتخلص من النمطية الفكرية التقليدانية الناتجة من الوقوع تحت إسار نحلة الغالب، وهو حال المدرسة الحداثوية التي يبدو للأستاذ ياسين من خلال نقده لها أنها متخلفة في أوطاننا بقرنين في نمط التفكير، يقول عن روادها: «مشدودون منجذبون إلى نقطة منها بدأ التاريخ، فلا يصح دخول التاريخ إلا لأمة سلكت نفس المراحل، وتفاعلت نفس التفاعلات.

لا يميز الحداثيون الخصوصيات التاريخية، ولا خصوصيات الأوضاع الموروثة. لا يميزون

(١) زريق، قسطنطين. نحن والتاريخ، ص١٧٩.
(٢) ياسين، عبد السلام، العدل، ص٦٩٢.
(٣) ياسين، عبد السلام، الإسلام والقومية العلمانية، ص٨٢.
(٤) ياسين، عبد السلام. سنة الله، ص ٢٨٥.

بالأخص انفراد هذا الدين الإسلامي، الذي هو ماهيتنا الوجودية، بأنه الوحي المحفوظ الحق. في تلك العقليات لا مكان لشيء يقال له حق يقابله شيء يسمى باطلا. فقط قديم مظلم لم يتنور بالفلسفة العتيدة، وعصري تطور على ضوء شمس العلوم المتحررة من قيد الخرافات»[١].

التاريخ الصاخب

الفعل الذي يصنع التغيير التاريخي لا يكون في نظرية المنهاج النبوي فعلا مستعليا مستقلا عن اضطرابات الواقع منزها عن تموجات الأحداث، بل هو الفعل الذي ينطلق من مبدأ المخالطة والمصابرة والمدافعة، إنه صناعة لتاريخ وسط الصخب، أو لنقل إنه «التاريخ الصاخب» لأن «الأحداث لا تنتظر، كما يقول الأستاذ ياسين (رحمه الله) و«حقائق التاريخ ودفاع الله الناس بعضهم ببعض من شأنها أن تتداخل فيها الحركات، وتتضارب الإرادات، وتصطك العجلات، وتتراكب العمليات. فإذا قلنا بضرورة اليقظة الإيمانية والهبة الإحسانية والتعبئة الجهادية فإننا لا نتصور مراحل يتهيأ فيها لجند الله هدوء الخلوة وصفاء العشرة وحلاوة الأخوة بعيدا عن ضوضاء الأحداث، خارج التاريخ الصاخب، ريثما تتم تعبئتهم للدخول في ساعة الصفر للميدان. ولا نتصور مصحة نعالج فيها في الجو المعقم أمراض النفس ورواسب الفتنة، لا نحتك بأحد مخافة العدوى، حتى يتم البرء وتكتسب المناعة. ولا نتصور محطات للاستراحة والترميم والتعديل عندها نحط الأحمال ونتخفف مما ينوء بنا من نازل الآفات.

عندما أتحدث عن الأفق العالي وعن ركوب متن التاريخ من أعاليه لا من أسافله، فأنا أعنى دخول المعمعة، واقتحام العقبة، ومخالطة المجتمع، وخوض غمار الجهاد والمجتمع مفتون سادر في خموله أو هيجانه، والأفكار في تفاعل، والاتجاهات السياسية في تصارع، والتخلف الصناعي والعلمي والاقتصادي ضارب أطنابه، وحكام الجور في كيد يكيدون، ومن خارج رحى الجاهلية تطحن»[٢].

التفاعل والتدافع إذن هو مضي في صخب التاريخ، هو انتماء إلى هذا الصخب البناء بروح التأثير والفعل والدفع إلى أقصى حدود الفاعلية الإنسانية، إن صخب التاريخ في الفكر المنهاجي هو صخب الإنسان في سعيه الذي يبرهن من خلاله أن رسالة الدين في الحقيقة هي رسالة تحمل

(١) ياسين، عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين،مص ١٩٦.
(٢) ياسين، عبد السلام. نظرات في الفقه والتاريخ، ص ٥٠.

المسئولية في كل طور من اطوار التاريخ، صخب التاريخ ينافي السكونية والانسحاب الراضي من ساحة الابتلاء والبلاء، وهو إعلان عن الخروج من موقف الاستقالة إلى موقف التهمم الشعوري والانتماء الفعلي لمتطلبات الزمن وشروطه.

من طبيعة الصخب التاريخي أن يبعث حالة من الخوف والتردد والتوقي في نفوس كثير من الناس، فيؤثرون السلامة والعافية، وهي عافية الجبناء الذين يقبلون بدور المتفرج المتطامن في سياق لا يرحم ولا يغفر للساكتين ولا للآمنين سكوتهم ولا شعورهم الوهمي بالأمن ولا بالسلامة، لأنه لا سلامة على الحقيقة وفي البيت من يسرقه، وإن لم تمتد يده بعد للمتاع الشخصي، فسرقة متاع الآخرين لا تعفينا من موقع الشهادة والشهود أن نمارس ما تقتضيه هذه الوظيفة من تنبيه وحراسة ونجدة.

في صخب التاريخ نحتاج أن نخرج من الخوف في اتجاه الحرية وهو مسار التجربة الروحية التي تصنعها التربية[1]، ونعين موقعنا في المسار الممتد لهذا التاريخ، أين موقعنا ممن سبقونا ومن الأشياء التي حصلت، لأنه بهذا التعيين نحدد موقعنا نحن في «شساعة هذا التاريخ» كما يقول بول ريكور[2]، صخب التاريخ يعطي الدافعية للقيام بواجبات الوقت ووظائفه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبارها التجسيد المتعالي لغرس القيم البانية في مجتمع العمران، هذا التجسيد يحتاج لأن يتنفس الحكمة والفهم المسدد والإنجاز الراقي بالتي هي أحسن، وإلا فالتاريخ يقلب لنا يومئذ ظهره لنواجه أعاصير النفوس المريضة والمصالح المتغولة والأنانيات المستعلية.

أسلمة التاريخ

يأخذ مفهوم «أسلمة التاريخ» عند الأستاذ ياسين معاني متعددة ومركبة تدور على الحاجة لإحداث التوازن في الجمع بين ما يقتضيه «الإيمان» من جهة وما تتطلبه «المسؤولية الوجودية» ثانيا في تأسيس الفهم وبناء الفعل، يقول الأستاذ ياسين: «أسلمة التاريخ تقتضي قراءة صائبة

(1) Ramon Martinez, Du Regard A la Contemplation, Itinéraire de la vie dans l'esprit,Brech Theologique, 1953, p77.

(٢) بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، ط١، ٢٠٠١، ص٢٠٧

لكلام الله العزيز الحكيم، موازية لنظرة متفحصة تستنطق الواقع، لأن الخضوع للسنة الإلهية لا يعني أبدا الاستغراق الخالد في انتظار متواكل. أسلمة التاريخ تعني قبول شروط المعركة كما قبلها رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه، والتشبث مثلهم بواجب الوقت، والإعراض عن المعارك الجانبية وآثارها، بذا يصبح «تداول الأيام» في حقك قدراً مقدوراً. أن تعالج الجزيئات بكل تواضع خطوة خطوة، مدافعا المعتدي، مواجها التكالب العدواني باستماتة من يوقن أنه على حق.أسلمة التاريخ لا تعني التحليق في سماء الأماني أو الاستلقاء على فراش الجبرية الوثير، والاحتماء بالقَدر لا يبرر أبداً تثاقلي وتغيُّبي عن مواقع التدافع بينما تزحف الكارثة، وإلا أصبحت منبوذا خارج التاريخ.فأفدح ما يمكن أن يصيب الشعوب المهزومة لجوؤها إلى المشاريع الضخمة تبنيها في سماء الآمال للتعويض عن نكستها، دون بذل أي جهد يعانق الواقع، مما يجعل اندحارها أمام الأعداء سهلا. إذ تنضاف الضحالة الفكرية حينئذ إلى جمود الأموات»[١].

أسلمة التاريخ تعني إعادة قراءته وفق مقاربة حية، وقراءة وتفكيك ما ابتدعته الآلة الاستبدادية من أدوات معرفية للتحكم في الرقاب باسم الدين، هذه القراءة لاشك انها ستكون «باهضة التكلفة» أو لنقل «مكلفة» بتعبير بول ريكور بما هي كل إعادة قراءة للماضي في الواقع هي إعادة بناء، وأحيانا على حساب تهديمات مكلفة[٢]، لابد لهذه القراءة في المنهاج النبوي أن تأتي وفق ما تقرره قواعد القرآن في تفكيك الظواهر والأحداث والوقائع بعيدا عن الانجرار أمام سلطة ما تنقله المعرفة التاريخية الرسمية الزائفة المزيفة فتزيد إلى أميتنا في فهم الدين أمية في قراءة التاريخ، مهمة قام بها على أحسن وجه التاريخ الإيديولوجي والتاريخ البلاغي..

يعتبر الأستاذ ياسين أنه من العبث أن نقرأ مسار التاريخ بمنظار غير إسلامي في سعينا الدؤوب إذا ما أردنا تسليم الحداثة، «لأن الحداثة هي المظهر الحديث للابتلاء، ولأن قصص الأنبياء لم ترد في القرآن للتسلية بل للاعتبار والاقتداء.حقاً إن التحدي الصهيوني يفعل فعله في الواقع المعيش وفي نفسانية العرب المسلمين وغير المسلمين، لكننا إذا عزلناه وضخمناه

(١) ياسين، عبد السلام.الإسلام والحداثة، ص١٢٨.

(٢) بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٩.ص٣١٩.

متأثرين بهمومنا وآلامنا، أصبح عائقا يستحيل تجاوزه. أما إذا وضعناه في السياق التاريخي الإسلامي وقسناه بمقياس التاريخ الإسلامي فإنه يصبح مجرد هبة ريح عابرة.فالقراءة القرآنية للتاريخ كفيلة بأن تحصر آلام الحاضر وهزائمه ونكساته في أبعادها النسبية. لأن «القضايا» و«المشاكل» التاريخية تتحدد حسب هذه الرؤية انطلاقا من ظرف شاسع معقد - كما يحلو لمفكري ما بعد الحداثة أن يصفوه- وانطلاقا أيضا من الزمن. لهذا لا يمكن للنشرات الخاطفة أو المقتطعات الانطباعية الموصولة بالمستعجلات السياسية أن تربطنا حقا بالتاريخ. حذارِ إذن أن تقطع الأحداث وأفعال البشر وضرورة التدافع صلتنا بالمطلق وبالموعود الرباني.لكن انتسابنا إلى البعد الرباني وإلى استمرارية تتجاوز حدود التاريخ لا يعني أبداً أننا نفر من المعركة الحاضرة»[١]

لا يقرأ التاريخ الإسلامي من لا يقرأ لحظاته بأسمائها وصفاتها، كما لا يقرأ التاريخ الإسلامي من يضع الصورة في غير إطارها كما يذهب الأستاذ ياسين (رحمه الله)، يقول: «ومن أفحش التيهان عن المعالم، والغمض في البصيرة، ووضع الأمور في غير مواضعها أن نتغنى مع جوقة المعزين لأنفسهم بالأمجاد الأموية والحضارة العباسية دون أن نأطر الصورة في إطارها الصحيح.

انحجبنا إذا عن النبع عن فعلنا، وارتوينا من أمشاج. زيفنا لأنفسنا الصورة من حيث نظن أننا نعزز جمالها. أضفنا على أنفسنا زيفا بعد زيف حين نحيط بهالة اسم «الخلافة» الصورة المتألقة بجهاد المجاهدين، وعلم العالمين، وإتقان المتقنين، ننسب كل ذلك إلى أنظمة حاكمة ما أنزل الله بها من سلطان.

وتلك أمية في التاريخ تزيد فظاعة الأمية الفظيعة في الدين»[٢].

أميتان تسدان عنا شرايين الهواء والفهم بما تقدمه الكراريس المعقمة والعقيمة، وهذا بكل تأكيد مقصود حفظا للاستقرار، حتى تبقى القبضة الفولاذية مستحكمة في الأعناق، وحتى تظل آلات المسح التعليمية الجهنمية[٣] تواصل عملها في تسطيح الذاكرة وتشتيت الانتباه

(١) ياسين، عبد السلام.الإسلام والحداثة، ص١٢٦.

(٢) ياسين، عبد السلام. حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، ص١٣٣.

(٣) يعتبر المرزوقي أن التعليم إذا لم يكن بشروط التربية الشاملة والمعرفة الشاملة يتحول إلى أهم أدوات الطغيان الذي يحرف الكتاب، يراجع، فلسفة الدين،م.س،ص ٣٠٠.

عن سبب الكارثة،يقول الأستاذ ياسين (رحمه الله تعالى): «يكون الماضي، واجتهاد الماضين (في شؤون الحكم خاصة)، وتزوير الماضي، أُنشوطَةً في أعناقنا، ووهنا في نفوسنا، وخَوَراً في عزائمنا، وبلبلة في فهمنا إن نحن استقينا العلم من مخاضات تاريخ المسلمين في مراحل تدهوره. إن نحن لم نرتفع إلى المرحلة التأسيسية لنواكب البناء النبوي الراشدي وننفُذَ إلى الاستبصار الضروري لنبْنيَ على المنوال الأول.

إن رسول الله ﷺ أخبر قبل نزولها عن أحداث نقْض عُرا الإسلام. وهو نبي الله يأتيه الوحي بما شاء الله من مكنونات الغيب. فهو عليه الصلاة والسلام أخبر بكَلِمِه الجامع بما يقع، وعدَّل وشهِدَ حين أخبر أنها ستكون بعده خلافة نبوة ثلاثين سنة. وجرَّح وقبَّح حين أخبر أنها بعد الخلافة تتحول ملكا عاضا وجبريا. وما العض والجبر إلا إكراه الناس على طاعة الحاكم ببيعة مزورة، أو بتقبيل الأرض على الأسلوب الكسروي. «فاعتبر ذلك في نفسك»[1].

يعتبر الأستاذ ياسين رحمه الله أن المؤرخ يكون معزولا مغرورا حين يُكَذب الوحي ويسميها بغير أسمائها، لعبة خلط الدوال بالمدلولات التي تعتبر أول خطوة في مسلسل التهريج التاريخي، هي التي صنعت الزور التاريخي»فأنت بذلك -رحمك الله ورحمنا على قدم- مع المتغني بأمجاد التاريخ العربي، لا يفقه قبيله من دبيره إلا تباريا مع الأقوام كيلا يكون لهم مجد ولا مجد لنا، وحضارة ولا حضارة لنا. وثقافة نبزهم فيها بزا بما قيل من شعر، وما تغنى من مغن في القصور الفخمة الضخمة.

غبش في وجهة استقبالنا القبلة النموذجية النبوية التربوية إن نحن غطينا على ما قصه الله تعالى علينا من عبر تربوية على العهد المجيد حقا وصدقا، عهد النبوة. وسَدٌ يحشرنا إلى الأمية التاريخية فالضياع في الأوهام ما نحلي به من تسميات مضللة هي من اختراع أصحاب السيف عهود أصحاب السيف. ومن أخطاء الصحابة رضي الله عنهم، وشرور من بعدهم نتعلم»[2].

هكذا يفتح الأستاذ ياسين الباب لقراءة تاريخية متجردة متأنية فاحصة مقلبة تفتش عن مكامن العطب بروح الذي يتعلم من أخطاء التاريخ ويتعلم معها إخفاقات المسؤولية، قراءة تحتاج لأكثر من هذا الذي سطرناه للخوض في تفاصيلها، يفتح الباب لقراءة ماضية لا

(١) ياسين، عبد السلام. العدل، ص٦٢٨.

(٢) ياسين، عبد السلام. حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، ص١٣٣.

تعرف الكلل ولا الملل شعارها أن الإنسان يتعب أكثر وهو واقف في مكانه، فعليه أن يمضي ويبادر للفعل والحركة ويكشف عما وراء الشجرة من غابة، وأنه ليس وراء سكوننا وانحدارنا التاريخي غير نار الفردية والاستبداد الذي أذل الإنسان باسم الدين، حتى ما كان هناك من مستبدٍّ إلا ويتَّخذ له صفة قدسيّة يشارك بها خالق الخلق، ولا أقلَّ من أنْ يتَّخذ بطانة من كتبة التاريخ والمنتسبين للدِّين «يؤولون» ويزيفون الحقائق ويعينونه على ظلم النَّاس باسم الشريعة ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥]، ظلم مزمن أبَّد فينا دين الانقياد ورفع معدلات الشعور بالذات السلبي Negative Self_(feeling كما يسميها ماكدوجل[1]، وهو شعور عكسي يدفع الإنسان لا إلى التغلب على مثبطاته، بل إلى الاستكانة والخضوع.

(١) نقلا عن :محمود محمود محمد، فلسفة التاريخ، ضمن مجلة الرسالة، ع٨، ١٩٣٣، ص١٢.